وترتعد ، لان افكار الرب تقوم على بابل لتجعل ارض بابل مستوحشة لا ساكن فيها»

وهكذا سقطت بابل المدينة الشهيرة ، وكان سقوطها عظيماً ، ولم تقم من كبوتها هذه ، ولم يعد لها سلطان وملك البتة ، في ما عتب من القرون ، بل تلاشت رويداً رويداً الى ان اصبحت ، كما جاء وصفها اعلاه ، تلولاً وخرائب ينعق فيها الغراب ، ويأوي اليها البوم . الّا انّ تلك الخرائب تدلنا على ما كان عليه سلفاؤنا البابليون ، اهل العراق الاقدمون ، وما حصلوا عليه من القدرة والسلطان العظيم وهي اوضح دليل على ان الامر بيد مدبّر الاكوان يهب الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء . عسى عراقنا العزيز ، في زمن هذه النهضة العصرية ، يعود الى مجده القديم الاثيل ، وعسى الشرق اجمع يسير سيراً حثيثاً في سبيل التقدّم والفلاح . وفّق الله رجال الاوطان الغُيُر الى كل ما فيه خير البلاد ، وجلب العمران ، انه السميع المجيب !

نشأة
الديانة المسيحية في لبنان

محاضرة القاها في نادي الشبيبة الكاثوليكية في بيروت

حضرة الخوري بطرس غالب

٣

اما الرؤساء الكنسيون ورؤساء الاديار المجاورة لهذه المناسك فاستغربوا سيرتهم وتولاهم شيء من القلق لدن مشاهدتهم هذا التفنّن في التقشف وشظف العيش امّا لقلّة تعوّدهم هذا النوع من التوبة والتكفير امّا لمخالفته تماماً لافكارهم العاجزة ولذا عُقد مجمع في انطاكية للنظر في امر هؤلاء النساك وربما كان الغرض من ذلك عزلهم وترئيسهم . — اقول هذا ايها السادة ليكون لنا عذر يوم نحكم ان القداسة لن تكون قداسة الّا اذا جاءت مطابقة لتصوراتنا القاصرة — غير ان الله الذي كان قد اوحى الى هؤلاء التوّابين العظام ان يفضلوا تلك الحياة الشاقة الغريبة ، لم يكن ليغضي عنهم طرف عنايته فكان ان اجتاع الاساقفة

والارشيمندريتيين الذين كانوا قد اعتزموا على استئصال شأفة تلك السيرة التي وصفوها بانها «معثرة» للشعب ، افضى بهم الى الثناء على النسّاك من عمودّيين وشجريّين لانهم كانوا اكتسبوا قلوب دانيهم بتواضعهم العميق وفضائلهم السامية . وان الفضل لهؤلاء القادرين في هداية لبنان الى الايمان الصحيح

لا ننكر انهُ وجد في لبنان قبل الجيل الرابع جماعة من المسيحيين البسلاء وعدد من الشهداء من مثل تاليليوس الجندي البطل وكيرلس اليعلبكي وجلاسينوس ، والعذارى الجريئات اللاتي قاسين شرّ الاهانات ثم ضُربت اعناقهنّ بسيف الجلّادين والتائبات الشهيرات افدوكيا وبلاجيا وغيرهما

اجل ان قسطنطين الكبير كان قد امر بهدمْ هياكل الاصنام غير ان يوليانوس الجاحد جاء بعدهُ وشدّد عزائم الوثنيّين وحضّهم على ترميم تلك الهياكل وآثار الاضطهاد على المسيحيين . وقد انفذ القديس يوحنا فم الذهب مرسلين فبعضهم طرد وبعضهم قُتل وحُكم على المهتدين بالعمل في المناجم .

كان التبشير هيّناً وسهلاً بعض السهولة في السواحل . أمّا لبنان فان الحقيقة لاقت في سبيل التغوّز الى قلبه وتوغّل فيه مصاعب جمّة تحاكي تلك التي سيلقاها الضلال فيما بعد بعينها يحاول طرد النصرانية من تلك الجبال ، بل انه سيلقى اشدّ منها . وسيحمل المبشّرون على لبنان حملة قوية تبتدئ من الشمال متواصلة منتظمة بعد ان يكون قوّادها قد سبقوا فأعدّوها واحسنوا ترتيبها فانهم لم يعمدوا الى المجادلات اللاهوتيّة التي قلّ ان تؤثر في شعب شديد المراس كالشعب اللبناني بل الى ممارسة فضائل نسكية سامية ومتواصلة . وقبل ان يذيعوا فيهم كلمة الخلاص علموا انهُ لا بدّ لهم من ان يُروا اولئك الابطال انهم هم افضل منهم ومن كهنتهم واوثانهم انفسها وان يستميلوهم ليهدوهم الى مدة عن جبالهم ، ان لم يكن كلهم فجلهم ، ليعاينوا قداسة اولئك المسيحيين المجتلين بالفضائل ، ثم يعودوا الى اخوانهم ممجدين الله ومتحدثين بالآيات التي ابصرتها عيونهم . ان في القداسة جاذباً لا سبيل للافلات منه ولاسيما اذا رأى الله ان يؤيدها بالمعجزات الباهرات

ولا ريب ان هؤلاء النسّاك لم يخطر لهم ببال حين اعتزالهم الدنيا وما فيها انهم سيكونون آلةً بيد الله لتتميم هذا العمل العظيم . وما كانوا يرغبون في ان يزدحم

الشعب حولهم ذلك الازدحام العجيب لكن العناية الالهية التي توسطتهم لتبشير الجليليين هي هي قادتهم الى تلك الصوامع والعواميد . والراهب مارون حين ساقه الروح الى جبال قورس لم يكن يفتكر بغير خلاص نفسه ، انما الله اراد به غرضاً معلوماً وهو ان يجذب اليه ويجمع حوله رجالاً من كل امة يؤلف منهم هو وتلاميذه بعده جماعة متحدة مع كرسي بطرس برباط الايمان والخضوع . اجل لقد حان لهذه الجرثومة الكاثوليكية ان تتكون وتتقوى لان المرظقة كانت قد شتتت شمل المسيحيين واخذت في فك عرى الاتحاد برومية فاموا قطيعاً لا راعي له . عدا انهُ كان قد اخذ يطلع في الفلك نجم ذلك الرجل الذي يجهز على النصرانية في الشرق .

اعتزل القديس مارون في جبل القورسية وكانت عاصمتها مدينة قورس البعيدة ٧٥ كيلومتراً عن حلب لجهة الشمال الغربي . احرزت تلك المدينة نصيباً وافراً من الشهرة والعمران ومعظم الفضل في ذلك عائد الى نساكها الذين عطروا الآفاق برائحة قداستهم وزهدهم وتقشفهم وعجائبهم . وقد حفظ لنا تاودوريطس اسقف قورس المؤرخ الشهير ذكر تلك الزهرات التي تفتحت اكمامها في حديقة السيرة النسكية .

واقول على سبيل الاستطراد ان هذا الاسقف الذي صنف كتباً كثيرة قد وجد من وقته متفسحاً للاهتمام بشؤون ابرشيته المادية ولا سيما تنظيم مدينته الاسقفية : بنى فيها اروقة ، وحمامات عمومية ، وجسوراً ، وجرّ اليها الماء الصافي واستقدم طبيباً وكان الاطباء في ذلك العصر عزيز وجودهم . ولا يسعني السكوت عن شكر الاب لامنس الذي استقيت من ينبوع علمه هذه التفاصيل .

اما القديس مارون فقد عقد النية على التخصص بخدمة الله في العزلة جعل مقامه على قنة جبل كان مكرساً لعبادة الشياطين ، فقدس فيه هيكلاً لله ونصب لنفسه خيمة من جلد كان يأوي اليها في حين الضرورة .

والف اناشيد ومدائح للحكمة الالهية فجاد الله عليه بصنع الآيات فاخذ الناس يفزعون اليه من كل حدب وصوب فيبرئ عللهم المختلفة بدواء واحد هو الصلاة ، ويشفيهم من امراض النفس كما كان يعالج امراض اجسادهم فانبت

مثله وتعهده عدداً كبيراً من اغراس الحكمة لان الجنّة التي ازهرت في بلاد القوسية انما هي من غرس يده المباركة . ومن تلك الاغراس الناضرة يعقوب الكبير وتلاميذ المعروف ايضاً بليميناوس وموسى ودوفيناوس وابرهم وزبينا وغيرهم كثيرون.

ومن النساء من سلكن طريقه الموعر بمثهنّ دومنينا وكورا ومارينا العذراء الفريدة التي لبست زي الرجال واتت فترهّبت في احد اديارهم وكتمت حالها فلم ينكشف امرها الّا بعد موتها . وقد نُظم اناشيد مختلفة تخبر بوقائع حالها منها مديحة الّفها البطريرك يوسف حليب الحاقوري وهي طويلة لا يسمح لي ضيق الوقت بروايتها بنصها فاكتفيت بالاشارة اليها . ولمّا كثر عدد هؤلاء النساء تحوّلن الى العيشة المشتركة وأربين على ٢٥٠ راهبة .

وقد القديس مارون في الرب بين عام ٤١٠ و ٤١٢ فاقتفى الناس على جسده — وسيجري مثل ذلك بعد موت سمعان العمودي — اذ كان كل فريق يريد لنفسه امتلاك هذا الكنز الثمين . على ان اهل القرية المجاورة لصومعته تغلبوا على خصومهم واقاموا له كنيسة في مكان قريب من موضع عزلته بعيد عن قورس اذ ان تاردوريطس يشكو من حرمانه هذه الذخيرة ويقول: «اما انا فوان كنت بعيداً عن جسمه المقدّس فعزائي بما لي من رجاء الحصول على شفاعته.»

ان كان فيكم سادتي من اسعده الحظ بزيارة وادي قديشا «وادي القديسين» فلا ريب انهُ قد عاين تلك الاعمال العظيمة التي قام بها اولئك الرهبان ليجعلوا مناسكهم امنع من عقاب الجوّ وابعد من النجوم منالاً على زائرها،فانهم نقروا في الصخور الصمّاء صوامع وكوى ومعابد بل اديارًا،وتلك المناسك تعد بالمئات . الى تلك المناسك كان يأوي اولئك الذين افتخرت لبنان للمسيح وهم تلاميذ القديس مارون الذين واصلوا عمله فانهم ما لبثوا بعد موت ابيهم ان نزلوا سورية الثانية حتى ابواب لبنان وقد ارسل احدهم مرقيانوس رهبانه يشيّدون ديراً قرب افامية . ويروي ابو الفداء عن مجريات سنة ٤٥٢ ان الملك مرقيانوس امر بتوسيع هذا الدير الذي تألّب حوله المؤمنون الخاضعون للبابا لاون الكبير القديس ، والمخلصون للمجمع الخلقيدوني فلقّبوا بالخلقيدونيين.

وكان الرهبان ينتشرون من ذلك الدير متفقدين القرى نازلين الى المدن ليجادلوا في المسائل اللاهوتية يقضون فيها مدات ، كما جرى لهم في انطاكية حيث مكثوا ستة اشهر يجادلون خصوم المجمع الخلقيدوني ويظهر انهم كانوا يعمدون مرات الى العصا لافحام المناوئين بدليل تأنيب اليعاقبة لهم في الرسائل التي كانوا يرسلونها اليهم . غير انه لم يذكر عنهم انهم لجأوا الى السيف حلًا لمشكل تعليمي كما كان يفعل خصومهم الناضبون لاستعمال العصا.

وكان اكبر عضد لاعمال هذه الرسالة النساك العموديين واشهرهم القديس سمعان الكبير وقد قيل انه من تلاميذ القديس مارون . اتاه اللبنانيون مرة يسألونه ان يتقدمهم من الضواري التي كانت تعيث في قراهم وحقولهم فاجابهم : انكم ستكفون شرها بذريعة واحدة وهي ان تتضرعوا وتنقشوا صلبانًا في حجارة تجعلونها تحوماً لاملاككم . فلما فعلوا نجاهم الله من الضواري . وقد قرأت في « المكتبة الشرقية » للعلامة السمعاني انهُ في اثناء رحلته الى لبنان (١٧٣٦) أراه اهل الشمال اربعة حجارة محفورة فيها صلبان احدها قرب حصرون وثانيها في خراج بشراي وثالثها في أيطو ورابعها في ارض اهدن

ومن العموديين سمعان الصغير ودانيال ومن الشجريين مارون الناسك الذي عاش في نقوة شجرة وصنع آيات كثيرة.

وقد اقتفى الرهبان آثار هؤلاء الرسل الذين بشروا بتعليمهم وفضائلهم وعجائبهم ، على انهم اتبعوا طريقة يعتبرها البشر اشد تنظيماً . فانهم ما زالوا يتقدمون شيئاً فشيئاً حتى اجتمع حولهم عدد امكنهم ان يطلقوا عليه اسم موارنة او جماعة مارون نسبة الى رجل الله القديس مارون ابيهم والى الدير الذي شيد على اسمه . وامتدت هذه الطائفة في انحاء سورية حتى الفرات ، على ان الوفاد الاعظم منهم استوطن لبنان في اواسط الجيل الثامن كما يستفاد من شهادة التاسحري المؤرخ اليعقوبي الذي كاد ان يكون معاصرًا لما رواه من الاحداث وكان للموارنة منذ ذلك الجيل بل قبله سلطة كنائسية منظمة ولهم بطريرك واساقفة كلما فقد منهم واحد قام غيره . ويظهر ان مقام اولئك الاحبار كان في اول امرهم دير مار مارون على العاصي ، يستدل على ذلك من اصرار اعدائهم

على ذلك أسس هذا الدير وتفريق رهبانه اعتقاداً منهم انهُ متى ضرب الراعي تشتت الخراف ومتى قوّض المقـل تبدّد الجند . وظل الموارنة الى غاية القرن السادس عشر ينتخبون اساقفتهم من الرهبـان والجباء وكان هؤلاء الاساقفة يقيمون قرب البطريرك في احد الاديار وهو يرسلهم الى اقـام بطريركيته المختلفة يتفقدون احوال الموارنة وحتى اليوم يُطلق اسم «دير» على المقر البطريركي المارونى.

وكان هؤلاء الرهبان متصفين بالصفات الكافلة لحفظ الايمان الخلقيدوني في قلوب القطيع المتألب حولهم ، وقد برهنوا على صحّة معتقدهم وثباتهم في الايمان بالجدال الذي جرى بينهم وبين اليعاقبة في حضرة معاوية وبالآلام التي قاسوهـا فقتل منهم ثلثمائة وخمسون راهباً تشبّثهم بالايمان الكاثوليكي وجرح عدد كبير ممن بقوا في قيد الحياة . وكثيرون لاقوا من المراطقة ضروب المظالم والعنف وأسلم ديرهم للنهب والسلب وخرب فرمسه يوستينيان وبقي عامراً الى اواخر الجيل الثامن . ولمّا اشتدّت عليهم الاضطهادات عرضوا واقع حالهم الى البابا هرميـداس وطلبوا منه ان يرشدهم ولقبوا انفسهم في رسالتهم اليه « بابنـاء الكنيسة الكاثوليكية » . وكان تعلقهم الشديد بالحبر الروماني يقيم ويقعـد المراطقة اشياع الطبيعة الواحدة فجعلوا يعيرونهم قائلين : « لاورثكم » يعنون بذلك البابا القدّيس لاون الكبير الذي كان الموارنة يدافعون عن تعليمه.

على هذا الشكل نشأت الطائفة المارونيّة واهتدى الى الايمان الصحيح القسم الجبلي من فينيقية : جاليات تنزل قرب الاديار في لبنان وتجعل هنـاك محل سكناها . بُنيت الاديار اولاً ثم قامت القرى من حولها ودخلت لبنان عناصر مختلفـة فانضمت الى تلك الجاليات فازداد بها عددها منهم مرتدة متخلّفون عن قومهم كعبيد معتوقين، وأسرى فارّون الى غير ذلك . والكاثوليك المضطهدون كانوا يجدون في لبنان ملجأً حصيناً، من الرهبان الذين اجلاهم الملك انستاس حتى المؤمنين العائدين الى حضن الكنيسة في القرن الماضي ، لا يجمع بين هؤلاء الاقوام سوى الوحدة في الايمان الكاثوليكي الذي جعلهم اخوة وان اختلفوا اصلاً وفصلاً

امـا الطوائف الشرقيّـة الاخرى فانقسمت قسمين قسم كاثوليكي مـا ثم ان ضعف فقـلّ فقـدوا رئاستهم الروحيـة ، وقسم هرطوقي شدت

ازره السلطة المدنيَّة فاستسلم لها حتى في امور دينه فسادت الفوضى فيما بين افراده وقد اجهزت عليهم بيزنطية حين فضَّلت ان تخضع عنقها لنير الفاتحين على ان تنقاد لتعليم الكنيسة البطرسيَّة ، فحرمت نفسها وحرمتهم التدبير المعصوم واصبحت حالتهم حالة الغصن المقطوع من اصله فجفوا ويبسوا.

على انه قد ارتجع قسم منهم الى حضن الكنيسة فعاود تأليف هيئة كنيسة منظمة فسارت فيهم حياة المسيح فاورقوا واثمروا

فان كان الموارنة صينوا من الضلال وتجتمت في طائفتهم الكثلكة في الشرق مدة اجيال فما ذلك الَّا بفضل خضوعهم السريع التام لذلك الذي اقامه المسيح رئيساً على كنيسته لا بغزارة علومهم اللاهوتيَّة وكثرة خوضهم بحر المجادلات العقيمة . ومتى قلنا عنهم انهم كانوا كاثوليك في كل اطوار تاريخهم فاننا نفهم انهم بصفتهم جماعةً كانوا اذ يصل اليهم صوت رومية يذعنون دون ما تردّد والحق يقال ان هذا الخضوع هو العلامة الخارجة الفارقة للكاثوليكي عن غيره

حسبنا الآن ما تقدّم فلنقف عند هذا الحدّ اذ ان المرحلة الثانية من تاريخ لبنان سيجوزها بكم اب عالم له كل الالمام بالوقائع التاريخيَّة الشرقية وهو سيفتتح كتاب حوادث هذه البلاد في الفصل الذي انتهيت اليه .

وها اني ابرز ما تقدّم فأقول: أذيع الانجيل في لبنان الساحلي عقيب التبشير به في اليهودية وقد جاهدت كنائس السواحل لا اقلّ من اربعة قرون دفاعاً عن كيانها الديني وردًّا لحملات اعداء الايمان غير ان الضعف نالها منذ أُذن للهراطقة ان تمزق ثوبها ووحدتها فما طال امرها حتى ابتعدت عن مركز الوحدة فاتت . اما لبناننا الجبلي فكان في بادئ امره مستعصياً على الكرازة الانجيلية فبعد ان قبائلهُ لم يبقَ شيء يقوى على زعزعة ثباته وآثر اوديته وجباله وغاباته ومغاوره على رخاء العيش في السواحل ليصون ايمانه فانه فلما اكترث للمجادلات اللاهوتية لكنه اهتم بالطاعة لرومية فظلّ كاثوليكيًّا . فسألكم ايها السادة ان تتشبثوا بايمان اولئك الجبليين وتتجملوا بسذاجتهم وخضوعهم فتستمرّون مدى الدهور ثابتين على عهد الاخلاص الذي سجله جدودكم الكرام عليهم وعليكم وقيدوكم به